

في الأدب المقارن

التاريخ

في الأدبين العربي والانجليزي

للاستاذ غري أبو السعود

التاريخ قصة الانسانية وحكاية ماضيها ، يصف حياة الانسان من قديم عهوده ، وتقلب أحواله على مرور العصور ، وكفاحه في سبيل التقدم والسعادة ، ويعرض أعمال الأمم وعظائم الافراد وتعاون الشعوب حيناً وتعاديتها أحياناً ، ويشرح سريان الحضارة والثقافة من صقع إلى صقع ، ومن جيل إلى جيل ، ومن أمة إلى أخرى ، وما أضافته إليهما عبقرية كل شعب ، من مستحدثات العلوم والفنون والصناعات ؛ فالتاريخ سجل مليء بالعظات والدروس ، حافل بالمنعيات والطرائف ، يمتع اللب سياقه القصصى ، وينبه الخيال بعده الزماني ، ويملا النفس أحياناً بالفخار الوطني ، ويوقف الانسان في حاضره ويبصره بما بين يديه ، حين يعرض عليه أنباء الماضي ووقائعه

ولا يستمد التاريخ بما دونه المؤرخون في طروسمهم فقط ، بل يستمد بجانب ذلك من آثار الفنون المختلفة عن الأمم ، من عمارة ونحت وتصوير وأدب ، في كل هاتيك صور من عقلياتها ومذاهبها ومجتمعاتها ومنازعاتها ؛ فالتاريخ الحضارة المصرية القديمة لا يستمد إلا أقله مما دونه المصريون أنفسهم أو من جاء بعد عهدهم من مؤرخي الأمم التالية ، أما أكثر ما يعرف عن حياتهم الاجتماعية وتقاليدهم وديانتهم وعلومهم ، فستقى من غلقاتهم في عالم البناء والنحت والنقش والصناعة ، وقل مثل ذلك في تاريخ اليونان والرومان ، وغيرهم من الأمم التي أنشأت الحضارات وكان لها في العلم والفن شأن يذكر

فالتاريخ الأمة وفنونها متصلان أوثق اتصال ، فالعوامل النفسية التي تسطر على المجتمع والحكومة وتؤدي إلى الأحداث والتطورات السياسية والاقتصادية ، هي هي العوامل النفسية التي تسطر على فنون الأمة ، فيميل أبناؤها إلى فنون دون أخرى ، وينحون بفنونهم انحاء خاصة دون غيرها ؛ فقدماء المصريين الذين كانوا يخضعون للملكية مطلقة دينية الصبغة ويؤهلون ملوكهم ، نبغوا في

عالم العمارة في بناء المعابد والمقابر دون القصور ، ونحتوا التماثيل للملوك والآلهة ، لا للأبطال والرعاة والخطباء والرياضيين كما فعل الاغريق ، ولم يرتق فيهم الأدب الذي يترجم عن مشاعر الفرد ، ويعبر عن خوالج المجتمع

والأدب أشد الفنون اتصالاً بتاريخ الأمة وارتباطاً بتطورات المجتمع ، إذ كان صدى ناطقاً دقيقاً لما يحس به الفرد والمجتمع ، بل الأدب مصاحب في بدئه للتاريخ في ظهوره ، يتمازجان لدى الجماعات البدائية في محاولتها تفسير ظواهر الكون والتغنى بمفاخر أسلافها ، ويشاب كل ذلك بالخرافات ، ويظل الأدب والتاريخ مختلطين على ذلك النحو مادامت الأمة في عهد بدايتها ، فإذا ماتحضرت ودونت الكتب بدأت العلوم تتفرق وتتميز ويستقل كل منها بنفسه ، فظهر المؤرخون واستقلوا بأمرهم عن الأدباء ، بيد أن الصلات بين الأدب والتاريخ تظل محكمة ، إذ كان كل منها مرآة للمجتمع تعكس صورته من زاوية مختلفة

فالأدب لا غنى له عن درس تاريخ الماضين والتبصر في تاريخ عصره ، كي يتذوق عقله ويحصف فكره لأحوال البشر ، والمؤرخ لا غنى له عن النظر في كتب الأدباء ليفهم روح العصر الذي يؤرخ له ومثله العليا ، ولا غنى له إذا أراد أن يبيح تاريخه كاملاً عن أن يفرد جانباً منه لدرس الحياة الأدبية لذلك العصر ، والمؤرخ للأدب لاندحة له عن درس التاريخ السياسي للعصور الأدبية ، والبيئات السياسية والاجتماعية التي عاش فيها الأدباء الذين يترجم لهم ؛ وقد كان من عظماء اليونان والرومان أمثال ديموستين وتيسيديد وقيصرو وشيرون من جمعوا بين البلاغة الأدبية والتأليف التاريخي ، أو بين حرفة الأدب وحرفة السياسة وصناعة الحرب

إذا ما بلغت الأمة طور الحضارة والاستقرار والثقافة ، ودخل الأدب في طوره الفني ، تميز التاريخ وقام علماً مستقلاً بنفسه كما تقدم والتفت إليه الأدباء فوجدوا به مجالاً لفنهم رحيماً ومرتعاً لابتكارهم خصيماً ، فهم لا يكتفون باستيعاب حقائقه واجتلاء فوائده ، بل يتخذون من مشاهدته وأحداثه ورجاله مادة وغذاء لأفلامهم ، ومسارح لحياهم ومناح لبيان آرائهم في الانسان والحياة ، وشواهد لتدعيم حججهم في المذاهب والمشاكل ، فيتخذ منه الشعراء موضوعات لقصيدهم ، والقصاصون هياكل لقصصهم ، ويجدون في عوالمه العبدية وحوادثه القربية وعظائمه النابيين ، مهرباً للنفس من عقال الحاضر القريب ، وأحداثه العادية

كان الشعر في الجاهلية ديوان العرب لأنه - هو والقصص - كانا يحويان أخبار العرب ، ويحفظان مشهور حوادثهم وأيامهم ،

مدارا للقصص ، ولا من أبطاله أمثلة للتمجيد ، فليس من بين أدباء العربية الكبار من استهزه حادث تاريخي قرأه ، أو أثر تاريخي وقف به ، إلى نظم قصيدة أو إنشاء رسالة يستجلى فيها عبر التاريخ ويمجد قوة الانسان ، أو يتدب ضعف حيلته لإزام جبروت المقادير . وليس من كتاب العربية ذوى الأساليب الجزلة من شر عن ساعد الجد والبحث والاطلاع حتى كتب تاريخاً رفيعاً لبعض العصور أو الرجال ، تاريخاً بعد تحفة في عالم الأدب كما قد يعد مرجعاً في عالم التاريخ ، وإنما كان بعض الشعراء يتصلون من الشؤون الاجتماعية والسياسية ، ويتبرؤن من الاشتغال بمسائل التاريخ ، كما قال ابن المعتز :

قليل هموم القلب إلا للذة ينعم نفساً آذنت بالتثقل
ولست تراه سائلاً عن خليفة

ولا قائلا : من يعزلون ؟ ومن يلى ؟

ولا صانحاً كالعبر في يوم لذة ينظر في تفضيل عثمان أو على أما في الإنجليزية حيث كان الأدباء والمؤرخون كثيرهم من أفراد الشعب يشاركون في الحياة الاجتماعية والسياسية بأرائهم ومذاهبهم ، بل بأعمالهم ومساعدتهم ، فقد جاء كل من الأدب والتاريخ أكثر حرية وأقرب إلى جانب الشعب ، وأكثر طروقاً لمراضيع المجتمع ومشاكل بنيه ، وجاء الاتصال بين الأدب والتاريخ شديد التوثق ، وجاء الأدب الإنجليزي أحفل بآثار المجتمع الذي قيل فيه من الأدب العربي ، ومن ثم تدرس النصوص الأدبية الكثيرة في أثناء دراسة التاريخ في الجامعات ، فتدرس آثار ملتون مثلاً عند دراسة عهد المطهرين في إنجلترا

ووجد أدباء الإنجليزية في التاريخ مجالاً واسعاً لفهم وابتداعهم ، فجاء فيه شكسبير ومعاصروه جولات عديدة ، واتخذوا مشاهد رواياتهم في بلاد اليونان أو إيطاليا أو دانيمرة أو إنجلترا القديمة ، واشتق ملتون ودريدن موضوعات كثيرة من قصيدهم من تاريخ اليهود وأبناء ملوكهم وأنبيائهم ، فلما ظهر النثر الفني بجوار الشعر لم يغفل التاريخ ولم يكن أقل لموضوعاته طرقات من الشعر ، بل كان أحرى أن يشتمل على حقائقه ودقائقه ويعالج مسائله ودروبه . بما يمتاز به على الشعر من رحب جوانبه ودقة تعبيره ، فعالج جييون وهيوم وآدم سميث وكارليل وغيرهم التاريخ والاجتماع وفلسفتهما في أسلوب أدبي شائق ، وجع بعض الأدباء أمثال ما كولي وأرنولد بين الكتابة في الأدب والتأليف في التاريخ فكان الأدب والتاريخ لديهم كلا واحداً يحولون في نواحيه

ويمكن أن أخبار رحلاتهم واستقرارهم ، ويشيران إلى ما وراء ذلك من عوامل اقتصادية واجتماعية وعصية ، فلم يكن العرب إذ ذاك يعرفون من التاريخ إلا حفظ الأنساب ، فلما تحضروا واستقروا في المدن تضاد شأن النسابة وظهر التاريخ المدون ، ظهر أولاً لغرض عملي شأن كل العلوم والفنون ، لحفظ أخبار الفتوح وسيرة النبي الكريم وصحابته وتفسير بعض آيات الذكر الحكيم ، وارتقى التاريخ شيئاً فشيئاً وصارت له أغراض غير هذه وتنازل موضوعات أخرى أرحب وأعم

يد أن التاريخ لدى العرب — كالآداب — ترعرع في ظل الملكية المطلقة ، فقام كلاهما مشتملاً على نفس النقاظ : احتنى كلاهما بامر الملوك وأغفل جانب الشعوب ، واهتم بالأحداث السياسية والحروب وتجاهل التطورات الاجتماعية والاقتصادية ، واتسم كلاهما بالمحافظة والتقليد والنقل في غير نقد ، لأن وطأة الملكية كانت تضطر كلا منهما إلى الاطراق والاضواء والتعاقل عن مواطن الضعف ودواعي الإصلاح ، وكما كان الشعراء يفرضون الشعر ليتقدموا به إلى الأمراء مزلقين ، فيملاًونه بالمدح المغالى فيه ، كان بعض المؤرخين يصنفون أسفارهم ليرفعوها إلى بعض الخلائف والسلطين بغية الثواب والخطوة ، فيملاًونها بمدحه ومدح أسرته وتعداد مآثره ومفاخر دولته ، ويؤيدون دعواه وينحون على عداه ، ويتفاضون عما عدا ذلك

وقد ظل الاتصال قائماً بين الأدب والتاريخ بعد تدوين الكتب واستقلال علم التاريخ بنفسه ، فظلت كتب الأدب تحوى كثيراً من أخبار الجاهلية والاسلام ، بل كانت تلك السير والأخبار والشذرات والنوادر من أهم مواد كتب الأدب العربي ، ووردت في أشعار الشعراء شتى الاشارات إلى أحداث الماضي ورجاله ، كما أن المؤرخين وكتاب التراجم والمعاجم كثيراً ما كانوا يلجأون إلى الشعر مستشهدين لما هم بصده من تحقيق حادثة ، أو تصوير رواية ، وكان بعضهم يعيرون الشعراء اهتمامهم فيترجمون حياتهم ترجمة موجزة ، وكان بعض الشعراء ينظم في أحداث جيله ، كما فعل ابن الرومي في ثورة الزنج وفي مقتل بعض العلويين الخارجيين . وكان كتاب الأمراء يتناولون مسائل السياسة في رسائلهم ، فيندرج أشعار أولئك وكتابات هؤلاء في تراث التاريخ اندماجها في كنوز الآداب

يد أن الأدب العربي الذي أغفل كثيراً من موضوعات القول التي يتهاقت عليها الأدب إذا ما بلغ طوره الفني ، أهمل التاريخ إهمالاً كبيراً ، فلم يتخذ من حوادثه وحيا للنظم ، ولا من أعاجيبه

ضوء جدير على الدين الدرزي

الحياة والمعيشة الدرزية

للأستاذ محمد خالد ظاظا

يقول الأستاذ (عنان) إن كافة الرواة أجمعوا على أن الحاكم ذهب (ضحية المؤامرة والجريمة المدبرة) مع أن أنصار الحاكم ومؤيدي مذهبه يدعون أن الحاكم ارتفع إلى السماء امتحاناً للمؤمنين ولم يقتل أبداً؛ وعن قريب سيعود من البلاد الصينية ومعه الجيوش الجرارة فيفتح هذه البلاد جميعها ويعيد الحالة إلى ما كانت عليه؛ وسوف لا يبقى إلا الديانة الدرزية الحققة. لأنه بحكم الواقع تلغى جميع الأديان عند قدومه. وهؤلاء المؤمنون نزحوا من البلاد المصرية وقطنوا البلاد الشامية في الجبال الشرقية منها، وأسسوا مدناً وقرى اشتهر منها السويداء ومجدل شمي وبعقلين. وقد كانت لهم هذه الجبال معازل تصد عنهم غارة الأمم الفاتحة حتى أصبح يخشى بأسهم وشدتهم، ولم يختلطوا مع الأقوام السورية، بل تجنبهم حتى أنهم لبثوا ليومنا هذا محافظين على تقاليدهم وعاداتهم برغم تطور الزمان وانقلاب السلطان، وبقيت هذه الديانة سرّاً مدفوناً إلى حين نشوب الثورة السورية في عام سنة ١٩٢٦ فأذاعت من أسرارهم وديانتهم ما خفي طيلة هذه الأعوام الماضية. فالدروز ثاروا ودافعوا عن بلادهم وساهموا بقسط وافر من الوطنية، واضطروا بحكم الشدة أن يتركوا بلادهم تفعل بها نيران القنابل والمدافع فعلموا، فلعبت الأيدي بكتبهم المقدسة وتراثهم المدفون وانتقلت هذه الكتب إلى أيدي الكثيرين.

وقد أكدلى أحد رجال الدروز العقل أن كتابهم المقدس الذي يسرون بموجبه ويتبعون أثره هو خلاصة عدة كتب مقدسة، أو بالأحرى خلاصة جميع الكتب الدينية ويزاد عليه بعض الحكم والنصائح. ويندر وجود هذا الكتاب عند كل درزي لأنه ينسخ ويخبا عند رئيس الدين الأكبر

بلا تفريق، وبقيت كتاباتهم يدرسها طلاب الأدب كما يدرسها باحثو التاريخ

بل بلغ غرام بعض الأدباء بالماضي، وشغفهم بتقاليده وأزيائه ومحبتهم لأفئداه وعظماؤه حدّاً بعيداً، وقد كان سكوت من ذلك الضرب الذي يحيا في الماضي وبجلائله ولآلائه وبطولته، ولا يكاد يلتفت إلى الحاضر أو يعني بالمستقبل، وفي ذلك العالم السالف كتب سكوت أحسن قصصه. وعمن كتب في الروايات والقصص التاريخية أيضاً تيسون وبروننج ودرنكور وروشو، وقد نرى موضوعاً تاريخياً حديثاً كالثورة الفرنسية، وقد تناولوه المؤلفون الانجليز من شتى النواحي، فحفل لحوادث الثورة وشخصياتها ككارليل، ومنند بمبادئها كبرك، ومرحب بتلك المبادئ مترنم بها كوردزورث، ومتخذ من قصة وليد تلك الثورة نابليون موضوعاً للملحمة طويلة كماردي، وهكذا تحيا حوادث التاريخ في أذهان مطالعي الأدب مضورة من شتى النواحي

ولا شك أن هذا التاريخ الأدبي، إذا سميناها كذلك، أجدر بالقراءة وأحق باهتمام المثقف من التاريخ المجرد، إذ في آثار الأدباء تحيا حقائق التاريخ وتدب فيها روح إنسانية جديدة وتتملى بالإمتاع، ويعود التاريخ والأدب وكلاهما مظهر لحياة الإنسان المطردة التطور والتغير، وتفكيره الدائب الحركة والتقلب، وفي هذا التاريخ الأدبي يرتبط الحاضر بالماضي، والقريب من الأُمم بالبعيد، وتتقاصر مسافات الزمان والمكان، ولا يبقى إلا الإنسانية الشاملة، وهذه الإنسانية هي مجال كل فن صميم

هذا التاريخ الأدبي لم يعرف في العربية، فكان هناك المؤرخون وكان هناك الأدباء، ولكن كلا منهما كان مستقلاً عن الآخر استقلالاً كبيراً، ولم يكن الأدباء يعدون التاريخ مجالاً من مجالات أدبهم، أو مطمحاً من مطامع فنهم، يتكرون في مجاله وينشئون، وما ذاك إلا لانشغالهم بالقرب الحاضر من شؤون العيش، عن البعيد المترامي من أمور الحياة وآفاق الفكر، لأن الأدب ظل أكثره بلاطياً يمدح الأمير ويحور رسائله، وكان الفوز بتلك الخطوة مطمح الأديب ووسيلته الكبرى إلى الظهور فإذا ما بلغ ذلك المكان لازم ذلك الضرب الوحيد من القول، ولم يصرف أدبه إلى التأمل في شؤون الماضي والمستقبل، وهكذا أغفل الأدب العربي التاريخ فيما أغفل من موضوعات هي صميم الفن، لوثيق صلها بالإنسانية

نعمري إبراهيم السعوي